ثنائيّة وثنائيّون

وهب مؤيدو « الثنائية » يدعمون أسسها ، ويرسون مبادئها ، ويسوقون شواهدها :

● فذهب بعضهم الى : « أن الطبيعة عينها ميالة الى الثنائية ، لا الى الآحادية ، لأن أعضاء النطق عينها لا تخرج للمتكلم حروفا صامتة متفرقة ، بل مقاطع مركبة من الصامتات تحركها الصائتات » (١) .

● ويرى بعضهم أن القول بأن اللغة الانسانية نشأت بطريق المحاكاة وهذا رأى من آراء كثيرة قيلت فى نشأة اللغة — يرسى مبدأ هاما من مبادىء « الثنائية » اذ أن هذا الرأى كشف عن عدد كثير من الأصوات اللغوية فى مجموعاتها . ولوحظ أن جل الألفاظ التى نشأت عن طريق المحاكاة هو وضع ثنائى . ولذا قال كثير من الباحثين : أن أصل حكاية الأصوات فى اللغات السامية — ومنها العربية — هو ثنائى يعتمد على حرفين صامتين ، حين حاكى الانسان أصوات الطبيعة وغيرها من حوله بصيحاته وصرخاته الانفعالية ، وعبر بعد ما تلد عن حاجياته الطبيعية والحياتية .

ويرى الأب مرمرجى أن البرهان الحسى الجلى على وجود الثنائية هو : « فى أصل اللغة » ، يستخرج من العناصر الأولية للغة العربية ، وهى أسماء الأصوات ودعاء الحيوانات ، أو زجرها ، وبعض أسماء الأفعال ، فهى ثنائية ، ومنها كان بدء صوغ الفعل المضاعف ومكرره . دونك الألفاظ التالية — على سبيل المثال لأن منها فى اللغة شىء كثار — : « أف » كلمة تكره وتضجر ، و « آه » كلمة توجع و « به » و « بخ » كلمتان تقالان عند استعظام الشىء و « عس » « كلمة زجر للهر » (٢) .

وليس هذا خاصا بالساميات ، بل لاحظ العلماء — أيضا — أن لفظ « مو » فى المصرية القديمة والصينية يعنى (هرة) ، وجاء التوافق من أن الهرة سميت بالصوت الذى تحدثه .

---

(١) معجميات عربية سامية ص ٩٨ .
(٢) معجميات عربية سامية ص ٩٩ .

(وسواء أكانت المحاكاة لصوت انسان : كالقهقهة ، والنحنحة ، والتأوه ، والتأفف) .

(أم كانت محاكاة لصوت حيوان : كالزقزقة ، والمواء ، والصهيل ، والزئير) .

(أم كانت محاكاة لصوت الطبيعة ويطلق عليها المحدثون نظرية (بو ـ وو) (Bow-waw) ، وذلك كحفيف الشجر ، وخرير الماء وصرير القلم وهزيم الرعد) ..

وليس (ماكس مولر Max Mueller) هو صاحب نظرية « المحاكاة»حين أشار اليها فى محاضرته بلندن سنة ١٨٦٤ وأعطاها اسما جديدا تعرف به هو (Ding-Dong) كما أشار بعض المعاصرين (١) . بل إن علماءنا القدامى عرفوها ، وأشار اليها ابن جنى (٣٩٢ هـ) وحكاها عمن سبقه ، ووصفها بالصلاحية والقبول ، حين قال : « ... وذهب بعضهم الى أن أصل اللغات كلها انما هو من الأصوات المسموعات ، كدوى الريح ، وحنين الرعد ، وخرير الماء ، وشحيح الحمار ، ونعيق الغراب ، وصهيل الفرس ، ونزيب الظبى ، ونحو ذلك ... ثم ولدت اللغات عن ذلك فيما بعد . وهذا عندى وجه صالح ، ومذهب متقبل » (٢) .

فابن جنى يحكى عمن سبق ، وفى حكايته هذه دلالة قاطعة على أنه كان مذهبا مقررا وشائعا بين السابقين من علمائنا .

وارتضى الشدياق هذا الرأى ، وذكر له أمثلة كثيرة تعزز رأيه ، فى كتابه القيم (٣) .

وأيد ذلك المستشرق الفرنسى (رينان) : فى كتابه : (التاريخ العام للغات السامية) ، وذكر أمثلة كثيرة توضح التشابه بين الأصوات اللغوية فى مجموعتى اللغات الآرية والسامية (٤) .

---

(١) نظريات فى اللغة لأنيس فريحة ص ١٩ .
(٢) الخصائص ١/٤٦ .
(٣) سر الليال فى القلب والابدال ص ٢٢ ـ ٢٧ .
(٤) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢هـ

والقول فى نشأة اللغة من أقدم المشاكل التى جابهت عقل الانسان ، لأنه أمر يثير الخيال .

والحق الذى يقال بصدده أن كل النظريات فى القول بنشأة اللغة الانسانية الأولى ليست يقينية ، ولا يسلم بها العلم ، لأنها حدس وخيال ، ونحن ندرسها على أنها افتراضات قيد البرهان ، وان غسرت كل نظرية قدرا من الألفاظ فسيبقى قدر لا تتناوله هذه النظريات ، والسر :

أن اللغة لم تبدأ — كما ذكرنا — منطقية ، اذ لم يكن هناك منطق ولا فكر ، كما أن قضيتها ليست لغوية بحتة ، ولا تدخل فى نطاق علم اللغة (Languis Tic) وحده ، بل تتشعب فى نطاق (البسيكولوجيا) (والأنثروبولوجيا) ، والفلسفة .

فنظرية المحاكاة وان تعلق بها الثنائيون وفسرت جانبا ، فهى تعطيهم شيئا وسببا يؤيد وجهة نظرهم ، وعليهم سوق أدلة أخرى .

« ولكن يسجل لهم أن معظم الأصوات الثنائية كانت محاكاة لأصوات الحيوان أو الطبيعة ، أو الأصوات التى تسمع عند مزاولة الانسان للاعمال التى تدل عليها الأصوات » (١) .

والنظرية تفسر ما يدل على المحسوس ويخرج عن دائرتها ما يدل على المعقول .

● وتعلق بعض مؤيدى « الثنائية » الى أن (نشأة اللغة انما هى ثنائية المواد) اى أن قانون التطور يرشد الى أن اللغة نشأت أول أمرها ثنائية المواد ، يتركب كل منها من مقطع واحد مغلق (اى من حرفين اولهما متحرك وثانيهما ساكن) ، وحين دعت الحاجة الى التنوع والمزيد اكتنزت هذه المواد الى الثلاثية وما فوقها بالطرق السالفة وأن المعنى العام كامن فى الأصل الثنائى ، وما زاد عليه لم يزد المعنى الا تنوعا حسب الحاجة والمقتضى .

وحفلت المقاييس اللغوية لابن فارس بالأمثلة الوفيرة التى تؤيد ذلك ، وحذا حذوه الشدياق فى كتابه : « سر الليال فى القلب والابدال » ، وللدكتور أمين فاخر بحث قيم لدراسة معجمية احصائية ، فى ثنائية الألفاظ فى المعاجم

---

(١) المصدر السابق نفسه .

العربية ، وعلاقتها بالأصول الثلاثية هو بمثابة التطبيق للنظرية التى نحن بصددها (١) .

ويذكر الدكتور محمد مصطفى رضوان — فى مقاله القيم عن الثنائية فى اللغة (٢) طرفا من أقوال المستشرقين الذين يؤيدون « الثنائية » ، ويستشهدون لها بما فى أخوات السامية ، يقول :

لقد طبق المستشرق الألمانى (فورست) النظرية الثنائية تطبيقا عمليا فى معجمه الكبير الانجليزى العبرى . مؤيدا نشأة اللغة ثنائية المواد ، من مقطع واحد مغلق اى من حرفين : أولهما متحرك حركته قصيرة ، وثانيهما ساكن .

ويقول المستشرق الألمانى (جزينس) فى كتاب له عن اللغات السامية، وقد شرح فيه الثنائية شرحا وافيا مؤيدا بالأمثلة : « ان ثلاثية الأصول اللغوية فى الفعل والاسم تلتزم بدقة واطراد فى اللغات السامية ... الى أن يقول : غير أن كثيرا من الأصول الثلاثية يمكن ردها الى أصول ثنائية ، تسميها : جذورا ، تفرعت منها جذوع ثلاثية وفوق الثلاثية .

والمستشرق الفرنسى (رينان) ، فى كتابه — التاريخ العام للغات — يزيد الأمر وضوحا فى هذا الصدد ، يقول : ان من بين الأصول الثلاثية أنواعا من الأفعال ، تعد ثنائية ولا تعد ثلاثية الا لاعتبارات صرفية ، تلك هى الأفعال المضعفة والمعتلة التى لا يكون فيها لتكرار الحرف الثانى ، أو لاضافة حرف العلة تأثير يذكر فى تغيير المعنى الأساسى الذى يفيده الأصل الثنائى ، وذلك نحو « نـد » فانه أصل ثنائى يفيد معنى الحركة أو الابتعاد، سواء ضعف ثانيه ، فقيل : (ند) أو مد أوله فقيل : (ناد) اى تحرك أو تمايل من النعاس ، ومنه (تندد) الغصن ، اى تحرك . أو مد ثانيه فقيل : (ندا) يقال : ندا الشىء ، بمعنى تفرق ، والابل النوادى ، هى الشوارد .

وان الأفعال الثلاثية المركبة من حروف صحيحة نجد — فى جميع

---

(١) انظر ثنائية الألفاظ فى المعاجم العربية . طبعة أولى .
(٢) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ .

الحالات تقريبا ـــ أن أحد أحرفها الثلاثة أضعف من الآخرين ، وأنه لايحدث فى المعنى الأساسى الا تعديلا طفيفا (١) .

ومن ثم يبدو أن الأصل السامى الثلاثى يمكن رجعه فى الغالب الى حرفين أساسيين أضيف اليهما ثالث ليس له فى تغيير المعنى الأساسى الا تأثير طفيف ، وان الأصول الثنائية السامية هى العناصر البدائية التى لا تقبل النقص .

والقيمة التى تضيفها دراسة المستشرقين هى المامهم بلغات شقيقات للعربية ، وغيرها ، تبعد مدى الرؤية ، وتعلى من قيمة الشاهد ، وتقيم النظرية والتطبيق .

والأب مرمرجى يرى هذا الراى ، وكثيرا ما ذكره فى مصنفاته ، ولخص فى احدها بعض مبادىء الثنائية ورأى أن من نتائج هذه النظرية : أن المثال والأجوف والناقص « ما هى سوى مزيدات أو توسعات فى الرس الثنائى الذى يجرى فيه أول التوسع بتكرار الحرف الثانى منه ، أو بتشديده : أى بتكراره لفظا ووضع الشدة عليه كتابة ، وعادة يجرى التشديد فى اللغات السامية : اما لعذوبة اللفظ أو تسهيله ، واما للمبالغة ، واما للتأكيد والتأييد » .

وعلى ذلك فالفعل (قام) مثلا ، أصله (قم) أشبعت حركة حرفه الأول ، مما يظهر فى السريانية فى كلمة (Iam) ولو تتبعت تصريف الفعل قام ، واتصاله بالضمائر ، لوجدت أن الأصل ثنائى وأنه يدل على معنى تام فى حالة الثنائية (٢) .

ويؤكد الأب مرمرجى أن من الأدلة على وجود الثنائى فى أصل اللغات ولا سيما السامية منها : « هو أن المضاعف العربى الذى يقال : انه مركب من ثلاثة أحرف أصلية ـــ لانجد مقابله فى السريانية الا بحرفين اثنين لا اكثر ، مثلا مقابل « حم » بالتشديد فى العربية نرى فى السريانية (حم) بالسكون ، وبازاء (مص ومص) (٣) .

---

(١) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ
(٢) معجميات ص ٩٦ ـــ ٩٨ بتصرف .
(٣) مجلة كلية الآداب الليبية ع ٤ لسنة ١٣٩٢ هـ

● ويرى بعض العلماء أن الثنائية طبيعية التكوين ، بمعنى أن « طبيعة الحرفين اللذين تتكون منها المـادة الثنائية لها دخل كبير فى بنائهـا على صورتها الثنائية ، اذ أن هذين الحرفين فى الغالب شديدان أو رخوان أو متوسطان بين الرخاوة والشدة .

ويرى كثير من علماء الفرنجة : أن المواد الأصلية المكونة من حروف شديدة هى على وجه العموم أقدم من المكونة من حروف رخوة أو متوسطة ويرجح أن الأخيرة نشأت عن الأولى بتخفيف الحروف الشديدة (١) .

ويؤيد ذلك ما ذكره (الشهاب الخفاجى) من أعجمية الكلمـات التى تجتمع فيها حروف معينة ، مثل (جردقة ، وجلنيق) لصوت باب وكذلك : (صنجة وصولجان) . وأيضا : (نورج ونرجس) . وأيضا : (مهندز وهندازة) . (وبست) اسم لبلدة (وسذاب وسـاذج) ، (وطاجن ، واصطبة) ... لأن الجيم والقاف ، والصاد والجيم ، والنون بعدها راء ، والزاى بعدها دال ، والباء والسين والتاء ، والسين والزاى ، والطـاء والجيم والصاد والطاء لايجتمع شىء من هذه الحروف الا ودل على أن الكلمة معربة ، وان استعملها العرب .

ويعلق الدكتور محمد مصطفى رضوان على هذا بقوله : « لكن يبدو أن ترجيح أسبقية المواد المركبة من حروف شديدة على المركبة من حروف رخوة أو متوسطة لا يستند الى دليل تاريخى .

ولعل الدافع لهذا الترجيح أن سنة التطور تقضى بالانتقال من الصعب الى السهل كما أن العقيدة الغالبة لدى العلماء أن الأصوات القوية هى التى لفتت نظر الانسان فى أول الأمر ، فحاكاها بحروف شديدة مثلها ، ثم حاكى الأصوات الخفيفة التى هى أقل من الأولى شأنا بحروف رخـوة أو متوسطة » (٢) .

وهو باستدراكه على ما بدأ به قد كفانا مئونة الرد ، والتعقيب . وبخاصة واللغة ـ كما أسلفنا ـ لم تنشأ منطقية ولا عقلية ، وتوحى سنة التطور والرقى بهذا التدرج .

---

(١) شفاء الغليل ص ٦ ، ٧

(٢) مجلة كلية الآداب .

وقفة مع الحرف الثالث :

● ووقف العلماء المؤيدون للثنائية طويلا عند طبيعة الحرف الذى يثلث المادة الثنائية .

وخلاصة رأيهم فيه : أن المعنى العام للمادة الثنائية كامن وباق فيها مهما توسعنا فى المادة بالزيادة ، وكلما رددنا موادها المزيد الى الصورة الثنائية ، وجدنا الحرف الذى ثلث أصلها ما يبرح ذا قيمة تعبيرية ذاتية ، توجه المعنى الأصلى العام توجيها خاصا ، وتزيده تنوعا وتقييدا فقط .

وبعض علمائنا القدامى حذق الثنائية على هذا النمط ، كالراغب الأصفهانى (٥٠٢هـ) كما فى مؤلفه : « المفردات فى غريب القرآن » اذ اعتبر المضاعف هجاء واحدا ، ولم يبال تكرار حرفه الأخير ، لأنه عنده من وضع الخيال ، لا من وضع العلم والتحقيق .

ورد ابن فارس ، فى « مجمل اللغة » باب (الجيم والذال وما يثلثهما) الى معنى الأصل ، كما فى جذر ، وجذع ، وجذل ، وجذم .. وان تفاوت الاستعمال نتيجة للحرف الثالث : فالأصل العام للشجرة جذل ، وللنخلة جذع ، وللحساب جذر ...

وفارس الحلبة فى شرح هذا المبدأ هو العلامة أحمد فارس الشدياق (١٨٨٧ م) ، والمستشرق الألمانى (جزينس) ، وأجاد الدكتور محمد مصطفى رضوان فى عرض آرائهم عرضا يوضح أهم مبدأ من مبادىء وأسس الثنائية فى نظره .

ولابد لنا فى هذا المقام من تلخيص هذا المبدأ ، كما ورد فى (مجلة الآداب الليبية فى عددها الرابع عام ١٣٩٢هـ) زيادة فى الفائدة ، ولتتضح جوانب الحقيقة فى هذه المشكلة التى طال أمدها ، واظهارا لبراعة الحس اللغوى للشدياق ، وكشفا لعديد من مؤلفات لغوية حديثة غمرت الأسواق ، تسوق فكر الشدياق وغيره ، وبضاعتهم دون أن تذكرهم أو تعزو اليهم علمهم وفضلهم وسبقهم :

فقد رأى العلامة (جزينس) أن تنمية المادة الثنائية ، يتم بواحدة من خمس طرق أولها : تضعيف الحرف الثانى ، وتلك وسيلة أولى وطبيعية فى

التنمية ، كما قال كثير من العرب والمستشرقين ووافقهم الشدياق ، وذكر ستة أسباب (١) للتدليل على صحة ما ذهب اليه ، نوجزها فيما يلى :

١ — أن معظم اللغة مأخوذ من حكاية صوت أو صفته ، وحكاية الصوت انما تأتى من المضاعف مثل : دب ، دق ، قر .

٢ — أن الفعل فى الأصل كالاسم : فى كونه يوقف عليه بالسكون قبل اتصاله بفاعله ، فاذا اتصل بفاعله فتح : فحين وضع الواضع (دق) لم يقصد بها فى أول الأمر أن تكون فعلا ولا اسما ، بل مجرد حكاية لصوت توهمه ، بقطع النظر أى شىء آخر ، فلما وصل (دق) بفاعله قال : دق الرجل . فلما أراد تخصيصه بأن يكون اسما قال : دق الرجل . وكثيرا ما نرى صيغة الاسم والفعل واحدة لهذا .

٣ — أن اللغة — كغيرها من الصنائع والموضوعات البشرية — لايحدث شىء منها تاما كاملا من أول وهلة ، ولكن على التدرج . فالأحرى أن نقول : ان الفعل السالم جاء آخر الأفعال أما الأجوف فانه غالبا ما يأتى عقب المضاعف ، مثل (طب) وطاب ، وصر وصار (أى صوت) . وأما الناقص: فانه صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب . نحو : همروهمى ، والأسف والأسى (٢) .

٤ — أن حكم ترتيب المزيد المضاعف لا يكاد يتخلف : فقلما ترى للمضاعف معنى الا ورأيت فى مزيده مثله أو ما يقاربه . والمراد بالمزيد هنامايكون الحرف الثالث فيه أو لامه غير عينه . وذكر لذلك أمثلة كثيرة تبلغ سبعة وخمسين ، منها : سل وسلب ، وكد وكدح ، ومن ومنح ..

٥ — أن زيادة حرف على المضاعف اليق بحكمة الواضع فى التفنن من نقصه ، اذ لو جعلت السالم أصلا لزم عنه العدول من الكمال الى النقصان ، والاختصار فى الأفعال ليس من مذهب العرب كما تدل على ذلك الأفعال المزيدة .

ودليل آخر : هو أنهم يشبعون الفتحة فى آخر الفعل فيتولد منها الف ، كما فى : (دحب ودحبى ، وسلق وسلقى) .

---

(١) سر الليال فى القلب والابدال ص ٢٢ — ٢٨ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٩ ، وراجع أيضا معجميات عربية سامية ص ٩٦ — ٩٨ .

وقس على ذلك زيادة الهاء فى هجزع للجبان ، والنون ، فى ضيغن ، والراء فى بحتر وبعثر .

٦ ــ اننا نجد افعالا مجهولة الأصل وأصلها من المضاعف معلوم ، مثل : امتخر العظم ، اى استخرج مخه فهو لابد أن يكون من امتخ اذ لم يجىء المخر بمعنى المخ . وقس على ذلك تمخى العظم ، بمعنى تمخخه » .

ونخرج من ذلك بأن كل المضاعفات هى بالحقيقة ثنائيـــات ، والثنائى وارد حتى فى الساميات ، متصفا بمعنى حقيقى وتام كما سبق أن ذكرنا للأب مرمرجى .

ثانيها : اضافة حرف علة الى أول المادة أو وســـطها أو آخـــرها : ويعلل الشدياق الاضافة فى الأجوف بقوله :

ان الأجوف غالبا من يأتى عقب المضاعف ، كطب وطاب ، وضر وضار وجب وجاب ... وهو كثير فى العربية .

ويظهر أن السبب فى العدول عن المضاعف ، الى الأجوف ، هو الرغبة فى التخلص من تشديد عين الفعل بمد حركة فائه ، لأن التشديد ثقيل ، حتى لا يكاد يوجد فى اللغات الآرية .

وسبق أن علل الاضافة فى الناقص بأنه : صدى غيره من الأفعال ، وكأنه نوع من القطعة (الترخيم) لغة لبعض العرب ، كما فى شـــجب وشجا ومحق ومحا .

والتقارب شديد بين معنى المضاعف والناقص ، كما فى : قضى . وغمى الخبر وغم .

والتقارب أيضا شديد بين المضاعف والمثال ، كما فى : وقص (قطع) وقص . ووخز وخز .

ثالثها : اضافة حرف من حروف الزلاقة (١) ، الى المادة الثنائية : مثل: قص قصم ، قصر ، قصب ، قصف قصل ..

---

(١) حروف الزلاقة (أى الخفة) يجمعها قولك : (مر بنفل) .

رابعها : اضافة أحد حروف الحلق (١) الى المادة الثنائية ، مثل : فق (فرق وفتح) وفقأ وفقع ، وفقح . ورد وردع . وقط وقطع . ومن ومنح .. فالمضاعف والحلقى معناهما واحد .

خامسها : اضافة حرف من أحرف الصفير (٢) الى المادة الثنائية ، مثل فر ، وفرز ، وفرس ، وقرص ، وكلها بمعنى فصل وفرق وقطع . ومثلها : فل وفلذ ...

تلك هى الطرق الخمسة التى تثلث المادة الثنائية ، كما لاحظها علماء اللغة ، وكلها شاهدة بأنه لافرق بين المعنى العام للمادة الثنائية ، وبين المعنى بعد أن أضيف اليها ما يثلثها .

ويعرض علينا الدكتور رضوان ــ فى نهاية عرضه لآراء العلماء ــ مادة ثنائية حكائية ، مبينا المواد الثلاثية المشتقة منها بالطرق المختلفة ، وهى مادة (قع) ، مما يؤيد أن أصل الثنائية فى لغتنا مكين وثابت ، يقول :

ويظهر أن مادة (قع) فى الأصل حكاية لصوت الرعد المزعج ، ومنها القعقعة ، وتقعقع أى اضطرب .

والمواد المتفرعة عن هذه المادة تفيد معنى الخوف أو الانكماش أو الاسترخاء بصورة ما ، لما يترتب على سماع هذا الصوت من خوف .

فمن ذلك (قبع) القنفذ : أدخل رأسه فى جلده ، باضافة حرف زلاقى فى الوسط ومثله (قنع قنوعا) أى تذلل .

وبابدال القاف كافا ينشأ : (كع) الرجل كعوعا ، أى جبن وضعف .

وباضافة الواو فى الأول ينشأ (وكع) البعير ، أى سقط ضعفا .

وباضافة حرف علة ، فى الوسط ينشأ (كاع) ، اذا هاب وجبن .

وباضافة حرف علة فى الآخر ينشأ (كعا) ، أى جبن . والأكعاء ، الجبناء .

---

(١) حروف الحلق يجمعها قول الناظم : همز فهاء ثم عين حاء مهملتان ثم غين خاء .

(٢) أحرف الصفير : هى ، السين والزاى ، والصاد ، ويلحق بها ما يقاربها .

ويقـــال : كبـــع ، أى ذل ، و (كنع) انقبض . و (كنع) هرب .وكثعت الابل : استرخت بطونها .

وبابدال الكاف خاء تنشأ المواد : (خنع) الصبى ، أى فحم وأنهكه البكاء ...

(وخنع) السراب : اضمحل . و (خرع) الرجل : ضعف . ومثله : خشع خضع خنع . ولخع الرجل أى استرخى جسمه .

وأن نظرة على الطرق التى مرت عليها المادة السالفة ، والمعنى العام الذى يرتبط بالثنائية بقوة ، يدعونا أن نقرر : أن عددا كبيرا من الأصول الثلاثية جاء تنمية لأصول ثنائية ، لاشك فى ذلك .

* * *